جورج خضر والحوار الإسلامي ـ المسيحي
مقاربةٌ لاهوتيّة

جورج مسّوح

يشغل جورج خضر منذ سنوات طويلة سُدّة مطران جبل لبنان لطائفة الروم الأرثوذكس. وقد وُلد بطرابلس الشام، وترعرع فيها بين المسلمين. واكتسب من هذه النشأة، ومن دراساته معرفةً حميمةً بالإسلام والمسلمين، تبدو في كلّ كتاباته. وهذه مقالةٌ في تحليل أصول فكره اللاهوتي تجاه الإسلام[1].

1 ـ القرآن:

كثيراً ما يستشهد المطران خضر في مقالاته بالآيات القرآنية، وذلك في سياق ديني أو غير ديني، إسلامي أو غير إسلامي. أحياناً تكون غايته من إيراده نصاً قرآنياً محض أدبية أو فنّية أو شاعرية أو جمالية.. وأحياناً أخرى تكون غايته إبراز مواضع اللقاء بين النص القرآني والنصوص الكتابية المسيحية، أو إبراز معانٍ روحية لنصوص قرآنية ليس لها ما يوازيها في النصوص المسيحية، أو قراءة مسيحية لنصّ قرآني. ماذا يمثّل القرآن للمطران خضر على الصعيد اللاهوتي؟

لا بد في بادىء الأمر أن نشير إلى أن نظرة المطران خضر إلى الأديان كافة، وإلى الإسلام خاصّة، ترتكز على ما يسمّيه هو «إيقاظ المسيح الراقد في ليل

(1) يقول المطران خضر: «المسيحية الشرقية التي استهدفتها الحملات الصليبية كانت مخلوعة مع بطاركتها وأساقفتها في الحكم الفرنجي لهذه المنطقة وقد مات أبناؤها ذبحاً في القدس واختلطت دماؤهم بدماء المسلمين»، في «القدس، ضمير المسيحيين العرب»، في الملحق، عدد 148، السبت 7 ـ 1 ـ 1995، ص 3.

الأديان»[1]. يريد خضر من نظرته هذه القول إن المسيح ليس محصوراً في إطار الكنيسة التاريخية، بل هو موجود في كلّ كشف إلهي وهو حرّ من كلّ مؤسسة أو نظام. لذلك يمدّ المطران حضور المسيح ليطال كلّ ما هو جميل في الأديان، فيقول: «الله قادر أن يكشف نفسه لشهداء عشقه من كلّ صوب أو لمن أقام الصلاة وأدّى الزكاة والتمس وجه الحبيب في حجّه البيت. فالدعاء بحقيقة يسوع كالدعاء باسم يسوع. فالمسيح ليس بالنهاية اسماً أو نظاماً أو مؤسسة ولكنه قيمة وفعل وتحوّل القلوب إلى الوداعة والتواضع والبساطة فإلى الجهاد الأكبر في سبيل المعذّبين(. . .) الفرق بين الناس أن المسيحيين يسمّون مخلّصهم باسمه وغيرهم لا يسمّيه. ولكن في الحالتين المخلّص واحد»[2]. هذا يدخل في نطاق ما عُرف في اللاهوت المسيحي بحضور المسيح في الكون كلّه، فالمسيح ليس حالةً محدودةً في الزمان والمكان، بل هو ملء كلّ شيء، من هنا القول بـ «المسيح الكوني» الذي جاء ليخلّص الكون وليس فقط جنس البشر. لهذا يطلب خضر من المسيحيين الابتعاد عن كل مقارنة بين الأديان، والبحث عن سيّدهم المسيح في كل كشف آخر، فيقول: «ولا أعتقد أن الأسلوب المقارن في عرض الديانتين (المسيحية والإسلام) مجدٍ في آخر المطاف ولكن المسيحي مدعو إلى التماس آثار المعلّم في كل تراث ديني وغير ديني. الإسلام، بهذا المعنى، مجال من مجالات المسيح. وعندي أننا قادرون أن نصل إلى حضوره في القرآن أكثر ممّا نتصوّره»[3].

ينطلق خضر من رأيه هذا ليؤكّد إمكانية وجود المسيح في القرآن، «أجرؤ على القول بإمكانية حضوره (المسيح) الجزئي في كتاب (القرآن) حوّل قسماً من الإنسانية عن وجه يسوع الذي مات وقام من بين الأموات»[4]، ذلك أن خضر يعلّل

(1) Khodr, Georges, «Christianisme dans un monde pluraliste: l'Economie du Saint Esprit», in. Irénikon, 1971, n2, p. 202.

(2) خضر، جورج، فلسطين المستعادة، منشورات النور، بيروت، 1969، ص 115.

(3) المرجع السابق، ص 111.

(4) Khodr, Georges, «Bible et Coran», in. L'ancien Testament dans l'Eglise, les Editions du Centre Orthodoxe, Chambésy, 1988, p. 217.

رأيه هذا بقوله إن القرآن ينسب نفسه إلى يسوع: «حبّنا ليسوع يفرض علينا أن نبحث عن آثار روحه في كتابٍ (القرآن) ينسب نفسه إليه»[1]. وهذا يدفعه إلى التساؤل عن سبب غياب أهمّ نصوص العهد القديم، أي كتب الأنبياء الأربعة الكبار وكتب الأنبياء الصغار الذين عندهم نفحة الكبار كهوشع مثلاً. هؤلاء الأنبياء المسيحانيون[2] الذين تكلّموا وتنبّأوا بمجيىء المسيح أكثر من غيرهم من الأنبياء، لا نجد لهم ذكراً في القرآن. يقول المطران خضر: «القرآن ليس فيه هذا الحضور الكبير لـ «حاملي الروم» في شعب إسرائيل وحسب، حتى إنه لا يذكر شيئاً عن مسيرة شعب الله في التاريخ من إبراهيم إلى يسوع الناصري»[3]. قول خضر هذا يُضعف بدون شك رأيه بوجود المسيح في القرآن، لأن الأدب الأكثر مسيحية في العهد القديم غائب عن القرآن، وهذا ما نلاحظه في كون بعض الفصول الهامة من سفر أشعياء النبي ـ التي تتكلّم عن المسيح واصفةً إياه بالحمل المُساق إلى الذبح وهو صامت لا يفتح فاه، والذي به يتمّ خلاص العالم ـ مغفلة.

من ناحية أخرى، يعتبر خضر أن غياب أدب الأنبياء الكبار عن القرآن إنما هو دليل على أن القرآن لم ينقل عن العهد القديم، وإلاّ لماذا أسقط كل هذا الأدب الروحي؟ فيقول: «الإسلام، في محتواه، يرغب في أن يكون كتابياً كمصدّق لما قبله من الكتب، ولكنه يبدو كأنه عودة إلى الكشف الذي تمّ لإبراهيم. . إذاً، توجد قراءة للأدب العبري والمسيحي أمينة لروح الشريعة الموسوية ومتجاهلة، في آن، لجوهر الأدب العبري النبوي ولقلب رسالة العهد الجديد (الموعظة على الجبل، الصليب، القيامة، الروح القدس والكنيسة). الدراسة المقارنة، هنا، تقودنا إلى نتائج ضعيفة جداً»[4]. يسجّل المطران خضر تجاهل القرآن للنصوص النبوية ولعمل

(1) المرجع السابق.
(2) المقصود هم الأنبياء أشعياء، إرمياء، حزقيال، دانيال، هوشع، زكريا (وهو ليس أبا يحيى المذكور في القرآن) وغيرهم. . .
(3) المرجع السابق، ص 226.
(4) المرجع السابق، ص 227.

يسوع المسيح الخلاصي، وهذا يعني أن القرآن هو كتاب أصيل (أي غير ناقل، عن غيره من الكتب)، ولو شدّد على أمانته لنصّ كتب الشريعة الموسوية الخمسة.

ويركّز خضر أحياناً على الفرق بين موقع القرآن في الإسلام وموقع الإنجيل في المسيحية، فيقول في محاضرة له بالفرنسية، ألقاها في باريس لمناسبة نيله الدكتوراه الفخرية بسبب أعماله في حقل الإسلاميات من كلية اللاهوت البروتستانتي الحرّ: «في الإسلام تكلّم الله عبر النبوءة التي وصلت إلى كمالها وقمة وضوحها في القرآن. في المسيحية تكلّم الله بشخص يسوع المسيح. كلمته هي حياة إنسانية بلغت كمالها ليس في نصّ ولكن في شخص حمل في نفسه كلّ الضعف البشري(. . .) هكذا يكون الكتاب المقدّس كلمة مكتوبة مختلفة جذرياً عن القرآن»[1]. «المسيح هو قرآننا»[2]، يؤكّد المطران خضر. فكما أن القرآن، عند المسلمين (على الأقل عند السنّة)، هو كلام الله غير المخلوق، هكذا المسيح، عند المسيحيين (على الأقل في الكنائس التاريخية)، هو كلمة الله غير المخلوقة.

يعتبر المطران خضر أن تجسّد كلمة الله بيسوع المسيح، وصيرورة ابن الله إنساناً هما أعظم من أن يتكلّم الله بكلام، فيقول مقارناً الإعلان المسيحي الذي تمّ بتجسّد ابن الله والإعلان اليهودي الذي تلقّاه موسى والإعلان الإسلامي الذي تمّ بتنزيل القرآن: «إزاء التوحيد الإبراهيمي ـ الموسوي قالت المسيحية إن الإله الذي يتكلّم كلاماً إنّما يكتفي ببعث الرسل لكنه لا يجيىء بكيانه كلّه. فالكلمات مهما سمت تبقى بين الله والإنسان وسطاً ووسيطاً. إنها ليست هي الإله. والكلمات مهما عظمت إنما هي شيء من لغة الإنسان. أجل نتلقّاها لأنها مرسلة إلينا ولكن أنّى لله أن يرسلها إلينا إلاّ إذا كانت منا. كلمات الله إلينا بعض من حضارتنا. فيها جانب بشري. ولا تستطيع إدراكها إلاّ إذا قرأتها مرتبطةً بنزولها في التاريخ. إنها تالياً من التاريخ ولو أوحاها من كان فوق الزمان. ولكن لا قِبل لك بها ما لم تبعثها من بين

(1) Khodr, Georges, «La communication du message en terre d'islam», in. Etudes théologiques et religieuses, 3 trimestre 1989, p. 376.

(2) في مقالة عنوانها: «هل من حوار إسلامي ـ مسيحي؟»، النهار 11 ـ 1 ـ 1992.

كلماتك. لها ظروف قراءة أو أسباب هي من أرض محدّدة وفي أوقات محدّدة. كلام الله لا سبيل إليه إلاّ بالقاموس»[1]. صحيح أن خضر هنا يذكر فقط التوحيد الموسوي ولا يشير إلى التوحيد القرآني، لكننا نستطيع بشكل غير مباشر أن نفهم كلامه هذا على أنه يطال أيضاً التنزيل القرآني الذي هو بدوره إعلان مقول.

كلام المطران خضر هذا لا يقبله معظم المسلمين، فهو يشدّد على البعد البشري في الإعلان الإلهي المكتوب وتالياً على المشاركة البشرية في صياغة النص الذي يفترض أن يكون أزلياً غير مخلوق. وفي كلامه دعوة إلى دراسة النصوص، مهما كان موقعها في الإيمان، دراسة نقدية بحسب سياقها التاريخي وتأثير البيئة عليها وظروف تنزيلها وتأويلها على هذا الأساس. المطران خضر يعود إلى مقارنة القرآن، الكلام الإلهي غير المخلوق عند المسلمين، بالكتاب المقدّس المسيحي الذي هو إنتاج إلهي ـ بشري عند المسيحيين، لهذا تراه يدعو إلى دراسة القرآن تحت منظار النقد التاريخي كما يدرس المسيحيون كتابهم. فيقول: «الحوار يقتضي منهجاً أكاديمياً صارماً، ولست أرى أسلوباً له سوى النقد التاريخي الذي يقرأ كلّ كتاب ـ بما في ذلك الكتب المقدّسة ـ على الخلفية التي ظهر منها»[2]. رأينا قبلاً أن المطران يقول إن المسيح هو قرآننا، أي كأنه يقول إن المسيح للمسيحيين هو كما القرآن للمسلمين. بينما هنا في هذا النصّ الخضري نرى الكاتب يدعو إلى دراسة القرآن كما يدرس المسيحيون كتابهم الذي تختلف مكانته عندهم عن مكانة القرآن عند المسلمين.

يرى خضر أن سكن كلمة الله في جسد شيء يجب ألاّ يثير الاستغراب ويشدّد على أن هذا أعظم من أن يسكن في كتاب، فيقول: «غير أن الإنسان يطلب الله نفسه، لا شيئاً منه. يريده بلا وسيط إلاّ إذا كانت طبيعة الإنسان المكان الذي تتجلّى فيه الطبيعة الإلهية»[3]. إذا طبّقنا هذه المقولة على القرآن، نستطيع القول إن الكاتب

(1) في مقالة عنوانها: «الكلمة والجسد»، النهار 29 ـ 3 ـ 1987.

(2) في «هل من حوار إسلامي ـ مسيحي؟».

(3) في «الكلمة والجسد».

يرى أن القرآن، ولو أتى من الله، إلاّ أن الطبيعة الإنسانية تبقى شديدة الأهمية كمكان لتجلي الله.. مع هذا نلاحظ أن خضر يدافع عن تجسّد الله وسكناه في إنسان، فيفرّق بين الكلمة والكلمات جاعلاً الكلمة، أي ابن الله، منبعاً لكلّ الكلمات التي قيلت قبله وبعده. فيقول: «إن القائلين بأن كلام الله غير مخلوق كانوا على حقّ. السؤال المطروح هو معرفة ما إذا كان عند الله كلام أو كلمة واحد تنحدر منه الكلمات، كلّ الكلمات التي كانت قبله أو جاءت بعده؛ وهل هذه الكلمة المعيار الوحيد لحقيقة الكلمات. بعد هذا ليس من صعوبة أن يسكن الكلمة جسداً، أن يظهر بشراً، لماذا يعقل أن يلبس الله لباس كلمات في كتاب ولا يعقل أن يلبس جسداً؟ أليست الألفاظ واللغة والكتب جسداً؟ أن نقول إن كلام الله في هذا الكتاب أو ذاك غير مخلوق وأن نقول إن الكلمة الذي حلّ فينا غير مخلوق قولان في معقولية واحدة»[1].

يستند خضر في كلامه عن وجود الكلمة الإلهي في كلّ كشف إلهي سابق للمسيح أو لاحق له على أقوال الآباء الكنسيين الذين سبقوه، فالقدّيس إيريناوس أسقف مدينة ليون في غالية (-202م) يقول: «لا إله إلاّ واحد وهو الله الذي منذ البدء وإلى المنتهى وبتدابير مختلفة يعضد الجنس البشري»[2]. قبل إيريناوس يتكلّم القدّيس الشهيد يوستينس (-165م) الفيلسوف الذي من فلسطين بإسهاب عن موضوع تواجد الكلمة الإلهية في العهد القديم خارج شعب إسرائيل، فالله كشف نفسه بطرق وأساليب مختلفة في الفلسفات والأديان القديمة من خلال كلماته المزروعة هنا وثمّة. فبينما يحصر يوستينس هذا الإعلان في الفترة التي تسبق ظهور المسيح نرى إيريناوس يمد هذا الحضور إلى المنتهى أي إلى الفترة التي تلت ظهور المسيح على الأرض. لا ينكر المطران خضر احتمال وجود إعلان إلهي لاحق على مجيء المسيح وإن كان خارج المؤسسة الكنسية، من دون أن ينسى ذكر أعظمية وسموّ الإعلان الذي تمّ في تجسّد ابن الله وتقدّمه على كل الإعلانات الأخرى السابقة واللاحقة له.

(1) المرجع السابق.

(2) ضد الهرطقات، 3، 12، 13.

مع ذلك لا يغفل المطران خضر الإشارة إلى بعض الآيات القرآنية العدوانية القاسية في حقّ المسيحيين، ولكنّه يرى أن المفسّرين كانوا أكثر قساوة من النصّ القرآني، وهذا بسبب المشاكل التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين فوجد بعض المفسّرين في بعض الآيات التي تحتمل تأويلاً متطرّفاً وسيلةً لهم ليتشدّدوا في معاملة المسيحيين. يقول المطران خضر: «إن الإسلام واقع وقد يبقى إلى الأبد وإن الرجوع إلى الشريعة وارد. إلاّ أن تطبيقها على المسيحيين أوقف بالخطّ الهمايوني منذ مئة وثلاثين عاماً. وأنا العليم بأن في القرآن آيات (صريحة في مضادتها للمسيحيين) وبأن علماء التفسير أشدّ ضراوة من النص. غير أن هذا جزء من مسألة التعايش ومن صعوبته. ولكن ثمّة أيام رضا ومسلمين يجيئون ممّا في كتابهم من سماحة وممّا في نفوسهم من رحابة»[1]. يعترف خضر أن في القرآن نصوصاً متسامحة ونصوصاً (قاسية) من دون أن يذكر عيّنة من الآيات التي تدعم رأيه. استعمال هذه أو تلك من النصوص في كتابات العلماء والمفسّرين والأئمّة والعامة، يجب وضعه في إطاره التاريخي وفي سياقه من دون إغفال الظروف التي تمرّ بها الأمة ومدى الخطر الذي يتعرّض له الإسلام كنظام حكم وحياة.

2 ـ شخصية محمّد:

لم يكتب المطران خضر كثيراً عن محمد ونبوّته، ولم يؤكد مباشرةً أن محمّداً هو حقاً نبيّ ولكنه لم ينفِ ذلك أيضاً. لا ينفي خضر، كما قلنا أعلاه، وجود النبوة خارج إطار المؤسسة الكنسية، فلا أحد يستطيع أن يمنع الله من أن يعلن نفسه ويظهر مشيئته إلى الناس بالطريقة التي يراها. يؤكّد خضر هذا الأمر عندما يقول: «إن ثمّة، قبل موسى، لله عهداً مع نوح. لله علاقة مع الكون تسبق الشريعة الموسوية وتتخطّاها. وعلى هذا المنوال هي علاقة لا تعبر تاريخياً بيسوع الناصري ولا بالتبشير الكنسي. هي علاقة إلهامات مباشرة. وإذا كانت النبوة، في أدنى مراتبها، هي هذه الصلة، فليس ما يحول دون رؤيتنا النبوّة خارج المؤسسة الكنسية. فقد أكّد العهد القديم وجود نبوّة

(1) في مقالة لجورج خضر عنوانها: «الفاعلية المسيحية أين هي؟»، النهار 15 ـ 12 ـ 1985.

كنعانية (1 ملوك 18). وليس في العهد الجديد ما يدلّ على أن المسيح أغلق باب النبوّة في العالم»[1]. بالرغم من اعترافه باحتمال وجود النبوّة خارج الكنيسة في إطارها التاريخي، لا يصدر المطران خضر حكماً مباشراً في قضية نبوّة محمد النبي، لكنه يشير إلى آراء بعض اللاهوتيين المسيحيين الذين اعترفوا بنبوّة محمد في الطور المكّي فقط، إذ يقول: «بندلي الجوزي في رسالة له عن المعتزلة باللغة الروسية اعترف بالنبوّة في الطور المكّي ورأى رأيه بعض الأجانب. هذا أو ذاك أقرّوا بأن للرسول العربي نور النبوّة بمعنى من المعاني ولكن لا يغربنّ عن بالنا أن هذه التأمّلات جديدة كلّياً وأن التعثّر في البدء لا محال منه»[2]. يترك الكاتب إذاً قضية نبوّة محمد لمزيد من البحث، ذلك أنه يريد تلافي التعثّر والخطأ في قضية أساسية من قضايا اللاهوت المقارن.

صحيح أن المطران خضر قلّما كتب عن محمّد ولكنه عندما يكتب عنه فإنه يعبّر عن محبة واحترام وتقدير له ولدوره في قيادة الناس إلى الله. يتوجّه خضر في مقالة مشهورة له عنوانها «ذكرى المولد النبويّ»[3] إلى محمد قائلاً: «إن من أطاع الله وأسلم إليه، على دينك كان أم على غيره، لا يستطيع أن ينصف إذا تجاهلك. ذلك لأنك في خطّ إبراهيم أبينا وأبيك»، ويتابع في المقالة عينها قائلاً: «وكان انشراح صدرك في أنك أدّيت الشهادة ورأيت العرب يدخلون أفواجاً في دين الله». في هذا الكلام اعتراف واضح بأن محمّداً كان ذا رسالة غايتها إيصال الناس إلى الله، وليس استعمال خضر لكلمة شهادة (وهو تعبير مسيحي يعني الكثير) إلاّ تأكيداً على عظمة هذه الرسالة وبعدها الإلهي.

يتطرّق المطران خضر في المقالة ذاتها إلى موضوع أمّية محمد ويماثل بينها وبين العذرية، فيقول: «أمّيتك هي عذرية نفسك، كانت صرخة على الشرك. فغدوت في صفاء التوحيد، كما يكون الأمّي أعذر بالنسبة إلى الحرف. وكان كنه الإخلاص المنزّه المؤمن ربّه عن كلّ ما عداه ﴿قل هو الله أحد الله

(1) في فلسطين المستعادة، ص 114.

(2) المرجع السابق.

(3) في حديث الأحد، الجزء الثاني، منشورات النور، بيروت، 1985، ص 265 ـ 267.

الصمد﴾ (سورة الإخلاص). قول ليس هو عقيدة وحسب. ولكنه آداب وتطهّر ليبقى الله وحدها مهيمناً[1] على الأرض ومن عليها ويعرف البشر أن لا قوام لهم إلاّ برعاية حقوقه». إذا كان المسيح هو قرآن المسيحيين عند خضر، كما رأينا أعلاه، فمحمّد هو مريمُ المسلمين العذراء. التذكير بأمّية محمد وتشبيهها بالعذرية إنّما هو تعبير عن موافقة خضر على عدم تدخّل النبي في التنزيل القرآني، وتالياً تنزيه النص القرآني عن كلّ تدخل بشري. ويقول أيضاً: «لقد تبتّلت إلى الله بكلّ قواك وغرت على شأنه غيرة مثلى وأردت أن يتبع المسلمون رضوانه وجامعتهم الوحيدة التقوى فإذا هم جروا على غير هداها وعلى غير سماحته، فإنهم لا يزالون على عصبية قريش التي تنكّرت لها»[2]. هنا، يفرّق خضر بين رسالة محمّد في نقائها وتصرّف المسلمين في التاريخ، فلا يحمّل النصّ القرآني أخطاء المسلمين في تعاطيهم مع المسيحيين أو غيرهم، ذلك أنهم إذا تصرفوا بروح عشائرية فإنما هم يكونون قد ابتعدوا عن فكر محمّد وجوهر رسالته. وينهي خضر تأمّله في شخص محمّد بالدعاء: «سلام عليك، في ذكراك، يا من أردت أن يخرج الله الناس من الظلمات إلى النور».

3 ـ الثالوث الأقدس:

الآيات القرآنية التي تدين بشدّة الإيمان النصراني بالثالوث ليست قليلة[3]،

---

(1) المهيمن اسم من أسماء الله الحسنى في الإسلام.

(2) المرجع السابق.

(3) ثمة ثالوثات عديدة في القرآن، وهي مختلفة جذرياً بعضها عن بعض. فأحدها بحسب إحدى الآيات مؤلّف من الله والمسيح وأمّه: ﴿وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله﴾ (المائدة، 116). وفي مكان آخر يبدو كأن المسيحية تؤمن بثلاثة آلهة وليس بإله واحد: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحقّ إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها على مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ (النساء، 171).

ومحاولات المطران خضر أن يبيّن أن الثالوث النصراني كما هو مقدَّم في القرآن قد كانت بعض الفرق المسيحية تؤمن به، ولكن من المسلّم به أنه لا يعبّر عن إيمان الكنيسة بشِقّيها الكبيرين: الأرثوذكسي والكاثوليكي. لا يتوانى خضر عن تقديم أمثلة ليبعد تهمة الشرك عن الإيمان الأرثوذكسي، ويذهب إلى القول إنه يوافق القرآن في رفضه للثالوث كما هو معروض فيه ومؤكّداً، في آن، أن ليس هذا هو الثالوث الذي يؤمن به المسيحيون. يقول خضر: «إن أكثر ممّا يبدو في القرآن ضدّ الثالوث نوافق نحن عليه، لأنه موجّه ضد بدع نصرانية نعرفها، ولا يمسّ العقيدة المسيحية التي تقول بها الكنائس. فمن قال مثلاً: إننا نربط فكرة الولد بوجود صاحبة والمسيح «بلا أمّ من جهة أبيه وبلا أب من جهة أمّه»[1]. في آيات كثيرة ينفي القرآن أن يتّخذ الرحمن ولداً، ونحن معه في ذلك لأن اتخاذ مخلوق لجعله ابن الله هو بدعة التبنّي التي كفّرناها. كذلك تنطرح مسألة مَن هم الذين قصدهم القرآن في سورة المائدة لمّا قال: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ (المائدة، 73). أنّى وردت هذه العبارة عندنا وما مدلولها في أية كنيسة من الكنائس. الإسلام يجاهد بدعاً لسنا معنيين فيها»[2].

وينفي المطران خضر عن الثالوث المسيحي تهمة الشرك، ويقول إن المقصود بالشرك في القرآن إنّما هو الثالوث الوثني، فيقول إن العرب «كانوا يؤلّهون القمر ويزوّجونه الشمس فتنتج الزهرة من هذه المجانسة. إنها العقيدة الوثنية المعروفة بالثالوث الكوكبي، هذا هو الشرك الذي على خلفيته يفهم العربي أن مقولة ابن الله مقولة جنسية: ﴿أنّى يكون له ولد[3] ولم تكن له صاحبة﴾ (الأنعام، 101). والشرك في أن العرب القدامى جعلوا لله بنات (النحل، 57)، والقرآن يرفض هذا النوع من البنوّة»[4]. صحيح أن القرآن يتّهم الوثنيين بالشرك، ولكن التهمة بالشرك تطال أيضاً

(1) من النصوص المستعملة في العبادة المسيحية.
(2) في «هل من حوار إسلامي ـ مسيحي؟».
(3) الجدير بالذكر أن المسيحيين العرب لم يستعملوا أبداً تعبير «ولد» للإشارة إلى المسيح، إنّما استعملوا بصورة دائمة تعبير «ابن»، الذي نجده مرّة واحدة في القرآن في سورة التوبة، الآية 30.
(4) في «هل من حوار إسلامي ـ مسيحي؟».

النصارى، الذين يودّ المطران خضر أن يتمايز وكنيسته عنهم، فالقرآن يقول: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أُمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانه عمّا يشركون﴾ (التوبة، 31).

يطلب خضر من المسلمين أن يناقشوا المسيحيين بعقيدتهم الثالوثية كما هي عندهم في وحدانيتها المتجلّية في نصوصهم اللاهوتية والعبادية، أي في مصادرها وليس في مصادر إسلامية أو كما هي واردة في القرآن. فالأمانة العلمية تتطلب من الباحث أن ينهل المعرفة من مصادرها فيستوعبها ثم يقبلها أو يعارضها مفنّداً، لا أن يسقط عليها تصوراته وآراءه المسبقة.

4 ـ المسيح:

تبقى قضية تجسّد الكلمة، ابن الله، هي القضية الأصعب للقبول عند المسلمين. لذا يجهد المطران خضر لكي يظهر أن عقيدة التجسّد لا تنفي إيمان المسيحيين بوحدانية الله وتالياً انتفاء مقولة العدد عنه، فيقول: «فمن سمّيناه الابن هو الكلمة في أزليته فإنه صادر عن أبيه بحيث يواجهه ولا يستقل عنه ولا ينفصل ولا تجوز عليهما مقولة العدد فنحن لسنا واقعين في تثليث عددي»[1]. ثمّ يقارن بين القرآن الذي هو عند المسلمين كلام الله غير المخلوق وبين المسيح الذي هو عند المسيحيين كلمة الله غير المخلوق، فيتابع قائلاً في المقالة ذاتها: «أليس التجسّد شبيهاً بالقرآن «لوحاً محفوظاً»، كلاماً غير مخلوق اتّخذ شكل كلمات قابلة للإعراب ومتّصلة بتاريخ العرب وحضارتهم ولها أسباب نزول متعلّقة بحياة الرسول، ومنها بعض كلمات أعجمية متّصلة بحضارة الفرس. نحن نقول عن المسيح ما يقوله المسلمون عن القرآن، المسيح هو قرآننا». ويوضح خضر في هذا الصدد أنه «لو اتخذنا بشراً اسمه عيسى وأقمناه في الألوهية لكنّا مشركين ولكنّا نتّخذ كلمة الله، «وإلهاً كان الكلمة» (يوحنّا 1:1) ونقيمه في البشر «والكلمة صار جسداً» (يوحنّا 1:14)». هذا التوضيح ضروري لكي يصحّح المسلمون نظرتهم إلى

---

(1) المرجع السابق.

الأحداث التاريخية وتسلسلها في ما يخصّ حياة يسوع المسيح. فالمسلمون يعتقدون، مستندين في ذلك على الآيتين القرآنيتين: ﴿وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدًّا﴾ (مريم، 88 ـ 89) و﴿ما ينبغي للرحمن أن يتّخذ ولداً﴾ (مريم، 92) وغيرهما من الآيات، أن المسيحيين قد رفعوا ولداً إلى مرتبة الألوهية. وهذا خطأ، لأنهم يؤمنون أن كلمة الله الذي هو إله منذ الأزل، قد صار إنساناً في التاريخ من دون أن يتخلّى عن ألوهيته.

والقضية الثانية التي تثير الالتباس هي قضية صلب المسيح وموته وقيامته، القرآن يؤكد بوضوح أن المسيح لم يمت قتلاً على الصليب (النساء، 157). إن القرآن، برفضه القول بالصلب، يعارض العقيدة المسيحية الأهمّ، فالمسيحيون يؤمنون أن خلاصهم مشروط بإيمانهم بموت المسيح على الصليب وقيامته بعد ثلاثة أيام. المطران خضر يرى أن الإسلام بإنكاره الصلب إنّما ينكر الرسالة الأساسية التي من أجلها أتى المسيح إلى العالم، فيقول: «الإسلام يقدّم لنا مسيحاً غريباً عنا. مسيح الأناجيل يختلف كلياً عن مسيح القرآن الذي نزل عن الصليب، ورفض الكأس المقدَّمة له من الآب، وناقض تسليم أمره وإسلامه[1] لمشيئة الآب بتكريس وطاعة كلّيين»[2]. يرى خضر في رفض الإسلام لموت المسيح على الصليب رفضاً لما هو أكثر إسلاماً في حياة المسيح، إذ إنه أسلم نفسه للصلب والموت، معبّرا بذلك عن استسلامه لمشيئة الله. قبول المسيح للصليب هو قمة إسلامه لله ومشيئته وهو هدف رسالته الأخير.

همّ المطران خضر أن يوصل إلى المسلمين الإيمان المسيحي كما هو، لا كما يتصوّر غيرهم هذا الإيمان، فالمعرفة الحقيقة عن الآخر تساهم في إسقاط الكثير من الأحكام الخاطئة. لذلك يدعو المسلمين إلى معرفة المسيحية في مصادرها معرفة أكاديمية، فالقرآن يعرض نصرانيةً بعيدةً عن المسيحية التاريخية المعروفة اليوم بالأرثوذكسية والكاثوليكية؛ كما أن إصرار البعض على تجاهل المصادر

(1) ترد كلمة «إسلامه» في النصّ المكتوب بالفرنسية في لفظها العربي.

(2) في «La communication du message...».

الأساسية في دراسة المسيحية لا يساعد في تبديد الالتباسات التي تعترض تقدّم الحوار. هذه بداية الطريق التي لا بدّ منها لكي يفهم كلّ واحد الآخر كما هو فيصلوا حينئذٍ إلى الحوار الجدّي والمجدي.